السرداب العراقي

بقلم : فريال داود المختار
قسم الاثار ـ كلية الاداب

كانت السراديب معروفة في العراق منذ العصور الاولى بل واصبحت في العصر العباسي من ابرز وسائل التبريد واستمر استعمالها لهذا الغرض حتى يومنا هذا على الرغم من تعدد وسائل التبريد الحديثة.

وقبل التعرف على هذا الشكل من اشكال البناء في العراق والغرض الذي من اجله بنى يجدر بنا ان نعرف كلمة « السرداب » واقسامه والاستفادات المختلفة منه ثم الاشارة الى العصور التي عرف الانسان كيفية استغلاله .

« السرداب » كلمة فارسية تتكون من مقطعين هما سرد ـ آب وتعني « الماء البارد »[١] ويطلق على السرداب ايضا اسم « زير ـ زمين » اشارة الى بناء تحت الارض فتعريب الكلمة حرفيا يكون « تحت الارض » ، كما يعرف ايضا بأسم « الزنبور »[٢] اذا كان عميقا ويسمى ايضا « السن » [٣] او « نيم سن »[٤] وهذا يكون عادة اقل عمقا من سراديب السن[٥] . وهناك سراديب عرفت في شمال العراق بأسم الرهرة والدبكي[٦] ثم سراديب الزندان[٧] كرندان قلعة باشطابيا في الموصل .

يكون السرداب عادة تحت صحن الدار او ارضيته وعمقه من اربعة اقدام الى خمسة او اكثر . اما النزول اليه فبواسطة سلم تختلف عدد مراقيه بما يناسب عمقه ، اما تجدد الهواء فيه فيكون عن طريق فتحات صغيرة جانبية موازية لصحن الدار مفتوحة في الصحن

نفسه او عن طريق مجار قائمة مع البناء حتى اعلاه ، واتجاه فتحة هذه المجاري فوق السطح عادة في الناحية الشمالية من السرداب وتسمى بالفارسية « البادكير »[٨] اي « صائدة الريح »[٩] او « البخاريات »[١٠] تنتهي بسقف صغير معقود يجتذب الهواءليوصله الى داخل السرداب .

يقال ان فكرة بناء السرداب قد انتقلت الى العراق من بلاد فارس « ايران » وخاصة من مدينة شوشتر[١١] الفارسية ولكن ليس من المستبعد ان يكون السرداب قد عرف في العراق كما عرف في بلاد فارس اذ كان يستخدم لدفن الموتى او لخزن المؤن الغذائية فقد توصلت التنقيبات الاثرية الواسعة في خرائب اور في المقبرة الملكية الى اكتشاف عدد من السراديب على شكل اقبية معقودة بالطابوق تحت ارضيات الدور[١٢] .

اما في بابل فقد وجدت غرف معقودة السقف تحت الارض ايضا كانت تقوم فوقها ابنية ضخمة يقال انها كانت الجنائن المعلقة (تعود الى عهد نبوخذنصر) كانت تخزن في هذه الغرف او بالاحرى السراديب جرار الخمور والمواد الغذائية كما وجدت فعلا بقايا الحبوب في هذه الجرار[١٣] كما وجدت في خفاجة سراديب تحت ارضية دور السكن لدفن الموتى[١٤] (تعود الى عصر ما قبل سرجون) ووجدت في آشور في شمال العراق سراديب معقودة بالطابوق تستخدم لدفن الموتى ايضا (من عصر سلالة اور الثالثة) .

لقد دلتنا التنقيبات الاثرية في بابل وآشور على ان السراديب بنيت لاغراض متعددة كخزن المواد الغذائية ودفن الموتى الا ان مرور الزمن وماصحبه من تطور في فن العمارة في العصور الاسلامية وخاصة في العصر العباسي اضفت على السراديب طابعا جديدا وهو استعمالها مكانا لطلب الراحة والنوم وللوقاية من حرارة الصيف المحرقة ، ولعل ابرز الاضافات التي ادخلها المعمار المسنم على تهيأتها لهذا الغرض هو ان زاد في سمك الجدران كما زاد في عمق السرداب

اذا ماكانت التربة رملية كما في سرديب سامراء والنجف الاشرف .

اما (البادكير) فقد جعله اكثر ارتفاعا فوق سطح البناءواوصله الى تجويف اقل انخفاضا من ارضية السرداب نفسه حيث منافذالمياه وهذه تكون على شكل آبـار عميقة تحفر في وسط ارضيةالسرداب ويتماس الهواء الجاف لسطح الماء الذي في وسط السرداب يكـون جو السرداب مشبعا بالبرودة دائما . اما ارضية السرداب فانهـا تبلط عادة بالآجر المربع واحيانا تترك بدون تبليط .

اما السقف فيكون على نوعين الاول ونجده في سرداب السن يتكون من طبقة صخرية وهذا يكون عادة في مناطق تكون تربتهـا من طبقتين او اكثر من الاتربة والصخور كمـا في مدينتي سـامراء والنجف ويتم ذلك بحفر التربة ابتداء من الطبقة الصخرية وبعـد حدوث ثغرة او منفذ يستمر في الحفر في الطبقة التي تليها وهيالطبقة الرملية ثم يستمر بالحفر حسب العمق المطلوب حتى ينتهي بالطبقـة الصخرية الاخرى وهذه غالبا ماتستخدم ارضية للسرداب وفي نفس الوقت تكون الطبقة الصخرية الاولى والتي تم النفوذ منهـا سقفـا للسرداب الذي تحته وهذا النوع من السراديب تكون في الغالـب جدرانها وسقفها خالية من الزخرفة .

اما النوع الثاني لسقف السراديب فكانت تبنى بالآجر كما هو الحال في معظم سراديب بغداد وغالبا ماتكون هذه السقوف علـى شكل اقبية نصف اسطوانية او مصطحات متعـامدة[١٥] وهـي في الغالب مزخرفة بالزخارف الآجرية البديعة ، اما الجدران فتكـون مزينة بالقاشاني[١٦] وقلما تخلو جدران السراديب من المشـكاوات او الطاقات حيث توضع فيها مسارج الشموع او اواني الطعـام وهذه الطاقات لاتخلو من الزخرفة ايضـا .

كما يلاحظ في معظم سراديب العراق نوافذ صغيرة في القسـم الاعلى من جدارنها ينفذ منها النور والهواء الى داخل السرداب .

يظهر لنا مما سبق بان اهم الاستعمالات للسرداب في العراقفي

العصور الاسلامية كان لغرض النوم وقضاء ايام الصيف الحارة فيه نظرا لجو العراق صيفا فقد جاء في احصائية لمنشآت مدينة بغداد في العصر العباسي انه كان فيها ١٠٦٠ سردابا[١٧] ، ولكن من المحتمل انها كانت اكثر من هذا العدد ، ولقد تعددت استعمالات السراديب في العراق وتعددت اسمائها في هذه الفترة وهذا ماجعل آدم متزيتوهم في فائدة السرداب او الغاية من بنائه حيث يذكر « وليس عندنا من دليل على ان البغداديين عرفوا السرداب قبل القرن السادس الهجري كما عرفناها واستعملناها اليوم فقد عرفوا البناء تحت الارض واتخذوا من ذلك مطايف استعملها الخلفاء لسجن اعدائهم ومن يغضبون عليهم وحفروا السراديب واتخذوها سجونا ليس غير »[١٨] . فقد قصر آدم متز استعمال السرداب لجعله سجنا على حين نجد ان الاستعمالات قد تعددت له وبناء على ذلك فقد قسمت انواع السراديب كل حسب استعماله وهي : (١) سراديب النوم ، (٢) سراديب الدفن ، (٣) سراديب دينية ، (٤) السراديب والممرات السرية ، (٥) سراديب السجون .

سراديب النوم

لقد مر بنا ان سراديب النوم كان الغرض منها هي الوقاية من حر الصيف اثناء النهار والليل احيانا لهذا نرى انه قلما يخلو دار بسيطا كان او قصرا من وجود السرداب في كل مدن العراق جاء في كتاب (بغية النبلاء) وصف سرداب في قصر الوالي موسى بن عيسى في الكوفة ١٦٩ هـ « ... فدخلنا عليه (اي موسى) فاذا هو في سرداب له يشبه الدور سعة فتعبنا في الشي اليه تعبا شديدا »[١٩] وجاء في كتاب العيون « ان الخليفة المقتدر بالله قد امر بحفر سرداب لمؤنس وان مؤنسا وقع فيه ومات »[٢٠] .

وفي مدينة سامراء سراديب ذات قيمة اثرية تعود الى العصر العباسي لايزال معظمها يحتفظ بمزاياه الفنية والمعمارية ، وقدكشفت التنقيبات الاثرية التي اجريت في مناطق متعددة من سامراء عن عدد

كبير من سراديب القصور الكبيرة كقصر العاشق[٣١] شكل (١) وقصر الخليفة وسراديب دور العامة المنتشرة على جانبي الشارع الاعظم وقد وجدت معظم هذه السراديب منقورة في الطبقة الصخرية ،ويدخل الى بعضها من مدخلين مثال ذلك دار تقع على جادة تتفرع من الشارع الاعظم من جهته الغربية ولايزال سرداب هذه الدار مفتوحا وقد اصبح بمرور الزمن مخبئا للصوص فاكتسب اسما له بين العامة وهو (بيت الحرامية)[٣٢] .

كما كشفت الحفريات الاثرية في قصر الخليفة (الجوسق الخاقاني) عن سردابين اطلق على احدهما السرداب الكبير والاخر

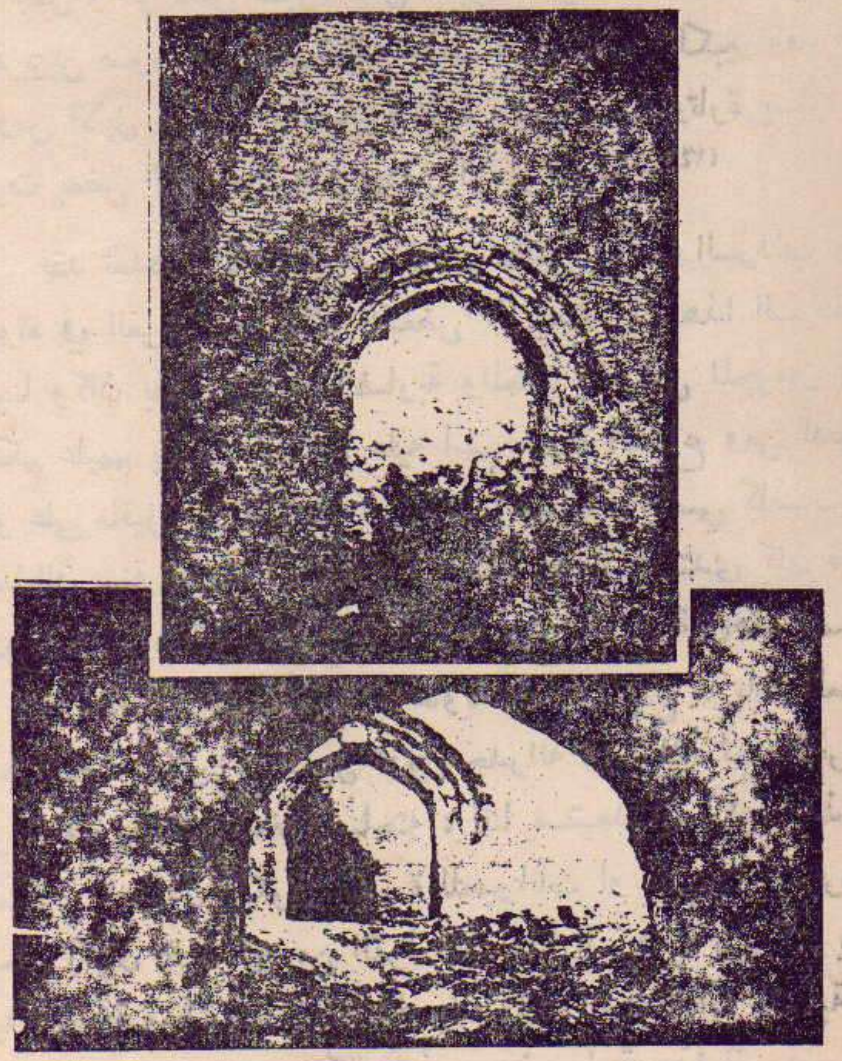

شكل (١) سراديب قصر العاشق

السرداب الصغير ، يقع الاول في الجهة الشرقية الخلفية من القصر ويتألف من ارضية مربعة الشكل فسيحة نقرت في الصخر يبلغ طول كل ضلع من اضلاعها الاربعة (٢١ م) ويوجد في كل ضلع ثلاثة اواوين ، وينزل الى السرداب بواسطة سلمين منتظمين الى عمق (١٠م)[٢٣] لكل سلم مدخل يبدأ من غرفة مربعة الشكل كانت تزين جدرانها زخارف جصية بديعة تتألف من افريزين كل افريز على شكل شريط يدور على جدران الغرفة من الداخل وكل افريزينه سلسلة من الجمال منحوتة نحتا بارزا باللون الابيض على ارضية دهنت باللون الازرق ، والجمال في هذين الافريزين من ذوات السنامين ويفصل بين جمل واخر نقش شجرة تمثل شجرة الحياة وقد جمعت في هذين الافريزين صور ابل صغيرة الى جانب صور الابل الكبير وقد صورت رؤوس الابل الكبيرة والصغيرة تارة متجهة يمينا وتارة يسارا وقد ظهرت بعض الابل ماشية والبعض الاخر باركة .[٢٤]

لقد تعددت الاسماء التي كانت تطلق على هذا السرداب واختلف الرواة في الغرض من بنائه فالبعض[٢٥] يعتقد ان هذا السرداب كان سجنا وكان يضم السباع الضاربة والمعدة لافتراس المجرمين الذين يحكم عليهم بالموت فاطلقوا عليه اسم هاوية السباع ومن ادعى ذلك فهو على ماقيل بان المهتدى امر بقتل السباع التي كانت في دار السلطان سنة ٢٥٥هـ[٢٦] ، ومما لاشك فيه ان المهتدى كان قد قام بقتل السباع ولكن هل كانت هذه السباع الضارية في هذا السرداب ؟ لو كان هذا السرداب سجنا او هاوية تضم السباع لما بذل المعمار هذا الجهد الكبير في سبيل تزيين جدرانه وزخرفته ثم ماالغرض من نقر الاواوين التي تحف بساحته ، اننا نستبعد ان يكون هذا الجهد المعماري قد بذل ليكون حضيرة للحيوانات او سجنا للمجرمين ، ولعلي اكون على يقين من القول بان هذا السرداب بني كي يلجأ اليه الخليفة وحاشيته من حر الصيف وقت القيلولة اما بالنسبة لتسميته بهاوية[٢٧] السباع فربما كانت في وسط ساحة هذا السرداب بركة او حوضا للماء تحيط بها تماثيل سباع تصب من افواهها المياه في

تلك البركة التي قد تكون كحوض السباع في قصر الحمراء في الاندلس فقد جاء في كتاب الديارات للشابشتي : « ذكر ابو حازم القاضي ، قا : كنت مقيما بدمشق مع ابن مدبر وكان لايرد عليه كتاب الا اقرأينه ، فورد عليه كتاب سعيد خليفة له بسر من رأى ، فقرأ وتبسم ولم يدفعه الي فسألته لاعما فيه ؟ ؟؟قال كتب الي سعيد يذكر انه كان واقفا بباب المتوكل اذ خرج موسى بن عبدالملك « وكان على ديوان الخراج في ايام المتوكل توفي سنة ٢٢٥هـ » وهو متغير الوجه فقال لغلامه : احمل الى عباده الف درهم وقل : لاتعاود ان تكثر فضولك فسألت عن الخبر فقيل دخل موسى على المتوكل وهو جالس على بركة السباع وعبادة بين يديه يتكلم ويعبث .. »[٢٨] .

ويوجد في الجهة الشمالية الغربية من السرداب الممر الذكر سرداب مربع الشكل توجدفي وسط ساحته بركة يبلغ طول قطرها ٨٠م وتوجد في كل ضلع من اضلاعه الاربعة غرفة يحتمل انها كانت محلا للنوم[٢٩] (شكل ٢) .

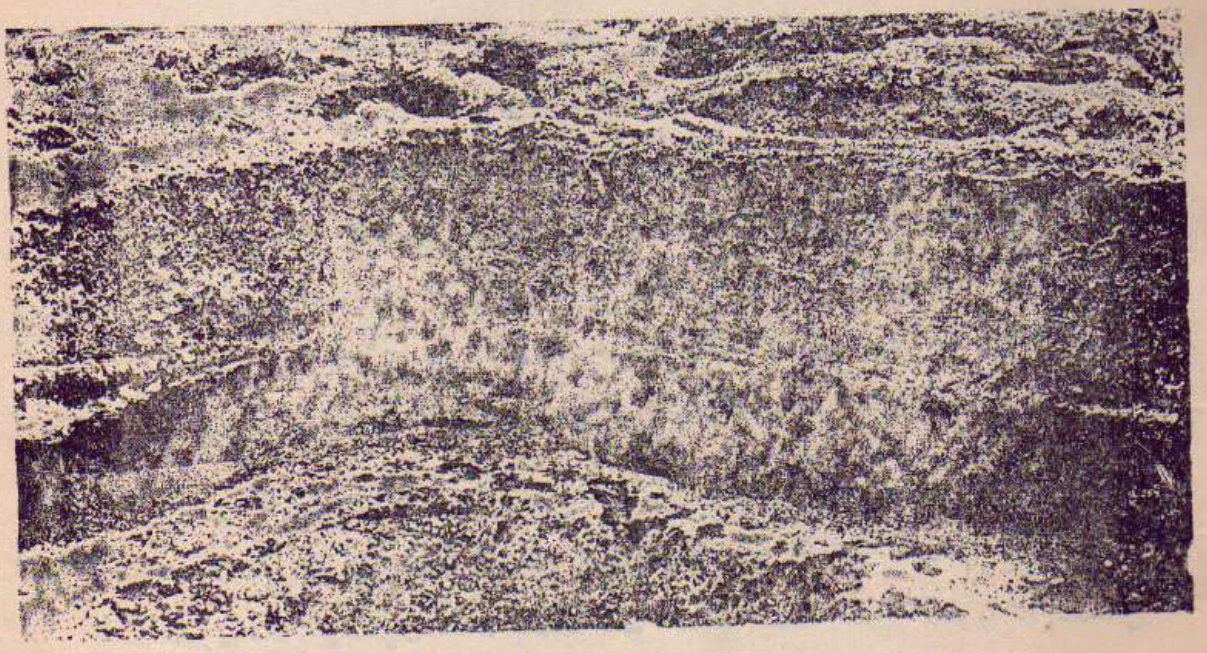

لوحة (٢) السرداب الكبير في دار الخليفة

(٢) سراديب الدفن

النوع الثاني من السراديب يطلق عليها سراديب الدفن التي استمر استخدامها لدفن الموتى بعد الاسلام وفي الغالب كانت تبنى داخل صحون مدافن الائمة وذلك تبركا بمرقد الامام جاء في الحوادث الجامعة ضمن حوادث سنة ٦٧٢هـ ان نصير الدين ابو جعفر (محمد بن) الطوسي قد توفي في هذه السنة وانه دفن في مشهد الامام موسى بن جعفر عليه السلام في سرداب قديم البناء خال من الدفن قيل انه كان قد عمل للخليفة الناصر لدين الله[٣٠] ، وفي عهد اعتماد الدولة فرهاد ميرزا جرى تنظيم سراديب دفن الموتى في الصحن الكاظمي[٣١] ، وفي كربلاء يوجد سرداب داخل مشهد الامام الحسين (ع) ينزل اليه بنحو عشر درجات وكانت ارضيته مغطاة بشبكة من الحديد اما في الوقت الحاضر فانها مغطاة بقطع المرمر المعرق البديع ويطلق عليه اسم المذبح .[٣٢]

اما بناء سرداب الدفن فيتم بالطريقة التالية :

تخطط المساحة المعدة لحفر السرداب ثم يبدأ بعد ذلك بالحفر الى عمق مترين او اكثر وتترك الارضية بدون تبليط كي يسهل على الدفان حفر موضع الجثة وينزل الى السرداب بسلم تتراوح درجاته بين السبعة والعشرة درجات اما السقف فيرتفع عن سطح التربة من الخارج بنحو قدم او اكثر قليلا ويدخل الى السرداب بواسطة مدخل صغير عليه باب صغير ينتصب فوقها شاهد القبر يحمل اسم باني السرداب ويكون عادة الجد الاكبر للعائلة .

اما تقسيم السردا ب من الداخل وكيفية حفر اللحود فيه فيكون عادة على شكل خلية النحل ، تترك المسافة المقابلة للسلم مباشرة بدون دفن وتكون هذه بمثابة ممر صغير يمتد امام القبور داخل السرداب ثم يبدأ بحفر مكان الميت (اللحد) على الجهة اليمنى للسرداب اي على يمين النازل اليه وبعد ان يحفر داخل التربة قرابة قدم واحد توضع جثة الميت وتوارى بالتراب ثم يبنى سقف

نصف دائري بالآجر وتوضع شاهد القبر حيث تحمل اسم الميت تاريخ الوفاة وهكذا يتم الصف الاول قبور متراصة داخل السرداب ثم يبنى الصف الثاني وذلك بعد ان تتم تسوية سطح القبور في الاول والفجوات المتروكة بينها بالتراب حتى تصل سطح السرداب .

وهناك طريقة اخرى يتم بموجبها تقسيم السرداب وهو ترك الممر الممتد امام السلم ثم بناء حواجز آجرية على يمين الداخل تبدأ من ارضية السرداب وتنتصب الى السقف وبين هذه الحواجز الآجرية تشق اللحود ويدفن فيها الميت ثم يوارى عليه التراب فقط اي لا يبنى عليها السقف النصف دائري كما مر بنا سابقا[٣٣] .

(٣) السراديب الدينية

هناك سراديب اكتسبت الصفة الدينية الى جانب قميتها الاثرية اشهرها سرداب الغيبة المعروف في سامراء واصل هذا السرداب هو سرداب دار الامام لعاشر علي لهادي عليه السلام وكان قد ابتاع هذه الدار عندما جيء به عنوة من المدينة المنورة الى سامراء في عهد الخليفة العباسي المتوكل[٣٤] ثم سكنها ابنه الحسن العسكري (ع) وكانت ولادة ابنه المهدي (ع) في هذا السرداب[٣٥] وبعد وفاتهما اصبحت مزارا ، وكانت هذه الدار نواة الحضرة العسكرية التي بنيت ووسعت بعد ذلك[٣٦] ولكن السرداب بقي كما كان عليه في الاصل وكل ما اضيف اليه لا يتعدى الترميمات والزخرفة .

في الحضرة العسكرية ثلاثة صحون الثالث منها هو الذي يعنينا ويعرف ايضا بأسم صحن الغيبة يبلغ طوله ٨٠ و٦٣م وعرضه ٣٠و٦١م[٣٧] ، ينزل منه الى السرداب بعشرين مرقاة يصل النازل الى غرفة مسدسة الاضلاع ينفذ منها الى مجاز طوله ٦م يصل بغرفة ذات شكل مستطيل مساحته ٨٠ر٥م × ٥٠ر٣م تعرف الآن بمصلى الرجال وعلى يسار الداخل يوجد مجاز صغير اخر طوله (٤م) يوصل بين مصلى الرجال وغرفة صغيرة اخرى مساحتها ٦٠ر٤م × ٣م وتعرف

هي الاخرى بمصلى النساء (انظر شكل ٣) في نهاية الغرفة المستطيلة الكبيرة وفي مواجهة النازل على وجه التحديد باب في غاية الروعة (انظر شكل ٤) حيث يعد آية من آيات الفن الاسلامي وهو من الخشب المشبك يحجز خلفه حجرة صغيرة توجد في احد زواياها حفرة دائرية صغيرة جدا يقال انها بئر الغيبة او المكان الذي دخل منه الامام الثاني عشر وغاب فيه ولم يخرج[٣٨] . ولكن مهما بلغت الاحاديث الكثيرة حول غيبة الامام من هذا السرداب وظهوره منه فاننا نقول بان غيبته ليست على مايدعون لان ذلك لايتفق مع ماورد من الاحاديث الصحيحة في كيفية غيبته عليه السلام[٣٩] كما تؤكد على كون سرداب الغيبة بناية شأنها شأن اية بناية اخرى سكنها الأئمة في حياتهم اتقاء حر الصيف ثم عظمها عامة الناس بعد مماتهم تبركا لذكراهم ثم غالوا في ذلك وعلى مر الزمن نسوا معها الهدف الذي من اجله بني ونسبوا اليها ماتصوره لهم مخيلاتهم اشياء بعيدة عن الواقع وكل ماهناك ان الشيعة تعتقد بغياب الامام المهدي وانه لابد ان يظهر ثانية ليملأ الارض قسطا وعدلا بعد ماملئت ظلما وجورا .[٤٠]

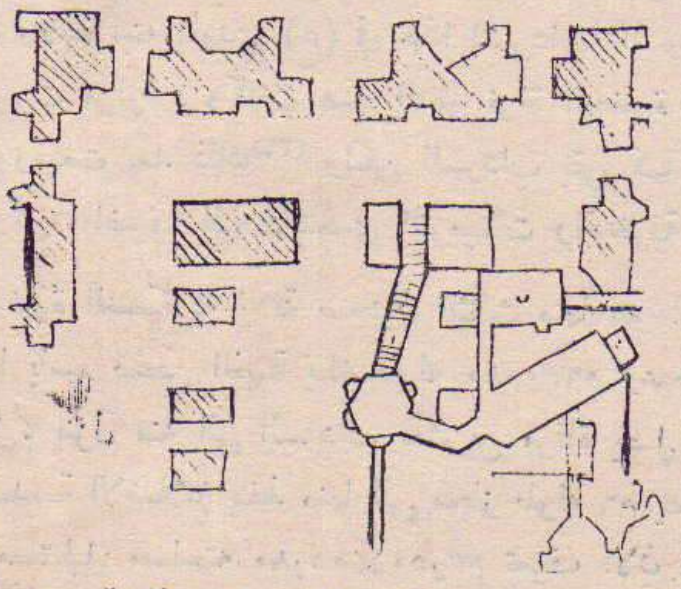

لوحة (٣) مخطط سرداب الغيبة

وابرز عنصر زخرفي في سردا ب الغيبة هو الباب الخشبي البديع والذي يعود الى عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله[٤١] سنة ٦٠٦هـ (١٢٦٩م) ويعد هذا الباب آية من آيات الفن الاسلامي الرفيع حيث جمع الفنان المسلم معظم العناصر الزخرفية حيث نجد الزخارف النباتية المعرقة والمتشابكة الى جانب الزخارف الهندسية والموزعة على مصراعي الباب وطرفيه وكذلك فوق الكتيبة المقوسة فوق الباب بالاضافة الى ذلك فقد زاد هذه الزخارف جمالا بادخال العنصر الكتابي اليها وبالخط النسخي البديع وقد طرحت هذه الكتابة على ارضية مزخرفة نقرأ فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، قل لاأسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى ومن يقترب حسنة نزد فيها حسنا ان الله غفور شكور هذا ماأمر بعمله سيدنا مولانا

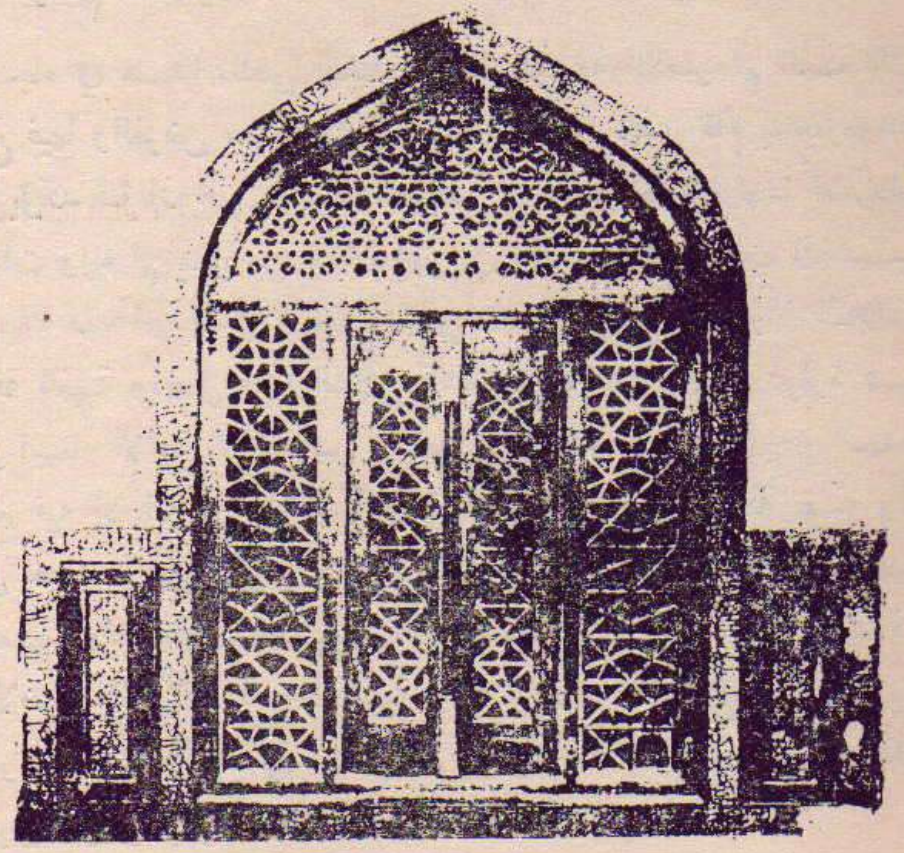

لوحة (٤) باب سرداب الغيبة

الامام المفرض الطاعة على جميع الانام ابو العباس احمد الناصر لدين الله امير المؤمنين وخليفة رب العالمين الذي طبق البلاد احسانه وعدله وغمر العباد بره وفضله قرب الله اوامره الشريفة باستمرار النجح واليسر وناطها بالتأييد والنصر وجعل لأيامه المخلدة حدا لايكبر جواده ولارائه المجدة سعدا لايخبو زناده في عز تخضع له الاقدار فتعطيه عواصيها وملك تخشع له الملوك فتملكه نواصيها بتولي المملوك معد بن الحسين بن سعد الموسوي[٤٢] ، الذي يرجو الحياة في ايامه المخلدة ويتمنى انفاق بقيةعمره في الدعاء لدولته المؤيدة استجاب الله ادعيته وبلغه فيايامه الشريفة امنيته ، (ذلك في ربيع الثاني) من سنة ست وستمائة هلالية وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين وعترته وسلم تسليما » .[٤٣]

جاء في هذا النص الكتابي اسم الخليفة الناصر ثم السنة التي صنع فيها والغرض من صنعه ثم اسم الشخص الذي قام بانجازهوهذا مما يؤكد لنا ان الباب صنع خصيصا في هذه الفترة ولهذا السرداب بالذات وانه لم ينقل من مكان اخر ، وبالاضافة الى الباب الخشبي المشبك فقد امر الخليفة بصنع نطاق خشبي يؤزر لجدران الثلاثة لغرفة الغيبة ويحمل هذا النطاق كتابة كوفية بارزة وهي عبارة عن ذكر اسماء الائمة الاثنا عشر بالتسلسل وانه خال من التاريخ الذي صنع فيه الا انه من المؤكد كان قد صنع في عهد الخليفة نفسه وانه عمل خصيصا لكي يؤطر جدران الغرفة هذه حيث ان الاطوال التي صنعت فيها النطق الخشبية توافق تماما اطوال جدران الغرفة ، وبالاضافة الى الالواح الخشبية والمشبكات البديعة فقد كسيت جدران الغرفة بالقاشاني او مايسمى بالزلاج[٤٤] الملون وباشكال زخرفية مزهرة بديعة الالوان .

هناك سراديب اضفى عليها الناس لجهلهم صفة دينية مثل سرداب

مسجد الكوفة الذي يعرف بأسم السفينة[٤٥] والحقيقة ان هذا البناء لم يبن سردابا للمسجد انما هو جزء من الارضية الاصلية لمسجد الكوفة قبل اجراء الاضافات المعمارية في المسجد ودفن ارضيته فاصبح بشكل سرداب حيث ينزل اليه بمرقاة تؤدي الى صحن مثمن الشكل وقد بلطت ارضيته بالآجر المربع الكبير ، ويوجد في كل ضلع من اضلاع الصحن ايوان ذو عقد مدبب غير نافذ ماعدا ضلع واحدة حيث يوجد منفذ يؤدي الى حجرة صغيرة يتوسط قبلتها محراب صغير زخرفت كوشتي عقده زخارف نباتية معرقة بديعة وكذلك يكون سقف مقدمة هذه الحجرة مثمن يحيط به شريط من الآجر مزير بزخرفة السلسلة يحيط به شريط آخر مزخرف بزخارف آجرية نباتية دقيقة الصنع محصورة داخل اشكال سداسية وثمانية وهذه الزخارف لها شبه كبير بالزخارف الآجرية التي تزين واجهة المدرسة المستنصرية المطلة على جهة نهر دجلة مما يؤيدان هذه الزخرفة قد عملت في اواخر العصر العباسي المتأخر .

ويوجد في صحن مسجد الكوفة سرداب اخر يعرف بأسم الطشت وقد اكتسب صفة دينية ايضا لكونه محل كان يقضي فيه امير المؤمنين الامام علي بن ابي طالب (ع) بين الناس وسمي ايضا بدكة القضاء ، وتزين جدران هذا السرداب زخارف آجرية نباتية معاصرة لزخارف سرداب السفينة .

ومن السراديب التي اكتسبت صفة دينية سرداب في مدينة الموصل في منطقة القنطرة ويعتبر مزارا وهو تابع لكنيسة السريان الارثوذكس ويرجع تاريخ بنائه الى نهاية العصر العباسي ويطلق على المزار اسم المارحوديني[٤٦] يؤمه المسلمون والمسيحيون على السواء للتبرك والشفاء من الامراض فبه سلسلة في نهايتها حلقة يضع المريض الحلقة في رقبته للشفاء ينزل الى هذا السرداب بسلم من احدى وعشرين مرقاة اما مساحة السرداب فتكون مستطيلة وقد دفنت حوالي ٥ر١م وذلك تفاديا للمياه الجوفية التي تغمره في موسم

انفيضانات وفي داخل السرداب اعمدة تقوم عليها عقود ذات دبب خفيف ، اما السقف فيكون على شكل اقبية نصف اسطوانية ،ويوجد تحت الدرج على يمين النازل بئر وعلى يساره حوض صغير دائري يرتكز على عمود يملأ الحوض بمياه البئر لتعميد الأطفال حديثي الولادة ، ولايزال هذا السرداب لحد الان وقد ادخلت عليه اخيرا ترميمات جديدة فألحق بالكنيسة التي تعلوه .

٤ ـ سراديب وممرات سرية

وتوجد سراديب اخرى غير السراديب التي مر ذكرها وهي اما ممرات توصل بين بيت واخر او محلة واخرى وقد عرفت هذه الممرات منذ فجر الاسلام بل اقدم من ذلك ، يذكر ان سردابا كان يوصل بين مسجد الرسول الكريم (ص) وبين دار ابي بكر الصديق (رض) وقد وصف الرحالة ابن جبير هذا السرداب عند وصفه لمسجد الرسول (ص) بقوله :

« .... وبازاء المقصورة الى جهة الشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك ويليهما في البلاط الثاني لجهة الشرق ايضا دكة مطبقة على وجه الارض مقفلة هي سرداب يهبط اليه على دراج تحت الارض يقضي الى خارج المسجد الى دار ابي بكر الصديق (رض) وهو كان طريق عائشة اليها وبازائها دار عمر بن الخطاب ودار ابنه عبدالله (رض) »[٤٧] .

واذا ماعدنا في التاريخ الى الوراء قليلا نرى ن الزباء ملكة تدمر كانت قد امرت ان يحفر لها سردابا او ممرا سريا جعلت مدخله تحت سرير نومها واوصلته بغرفة نوم اختها ومخرجه يكون تحت السرير ويكون هذا الممر قاطعا لمياه نهر الفرات[٤٨] .

ومثل هذا الممر او السرداب نجده في بغداد ايام الخلافة العباسية فقد بنى الخليفة ابو جعفر المنصور ممرا سريا يبدأ من قصره وينتهي على بعد فرسخين منه فقد روى ان المنصور كان يقول

للربيع : « هل تعلم ان في بنائي هذا موضعا اذا اخذني فيه الحصار خرجت خارجا منه على فرسخين ؟؟ فقال : لا ، قال المنصور : بلى »[٤٩] .

وقد ضمت معظم قصور بغداد الضخمة في العصر العباسي مثل القصر الحسني وقصر الثريا وقصر الفردوس سراديب واسعة وممرات سرية تربط بعضها مع بعض ، فقد امر الخليفة المعتضد بالله ان يبني ممر يربط بين القصر الحسني وقصر الثريا تحت الارض يبلغ طوله حوالي الميلان وكان يغطيه سقف ذو آزاج (عقود)[٥٠] ولهذا عرف بأسم الارج وكانت جواري الخليفة وحرمه يمشين في هذا السر بعيدا عن عيون المارة[٥١] (وقد وصف ابن بطوطة سنة ٧٢٧هـ عند زيارته بغداد بعض مبانيها التي كانت قائمة عند ذاك فقال « .... جامع الخليفة كان يتصل بقصور الخلفاء ودورهم وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضؤ والغسل[٥٢] وقد علق الدكتور مصطفى جواد على هذا بقوله « وهو كلام ابن جبير اعاده ابن بطوطة والصحيح ان الاتصال كان في سرداب يسمى الأزج على وجه الارض وللأزج باب يعرف بباب الأزج »)[٥٣] .

وقد بقي هذا الممر او السرداب حتى سنة ٤٦٦هـ وعندما غمرت مياه الفيضان بغداد الشرقية ودمرت مبانيها من جملة مادمر هو سرداب الأزج .[٥٤]

٥ ـ سراديب السجون

لما كان كل بلد لايخلو من وجود اعداء ومشاغبين او لصوص ومجرمين فقد حرص كل خليفة ان يبني في قصره سجنا ومعظم هذه السجون كانت على شكل سراديب تتميز بعمقها السحيق وصغر مساحتها وخلوها من منافذ تسمح لدخول نور الشمس حتى كان يصعب على السجين ان يفرق بين ضياء النهار وسواد الليل[٥٥] ، وكان غالبا مايسد مدخل السرداب بباب من الحديد كي يمنع الخروج

منه بسهولة[٥٦] ، ومن اشهر هذه السراديب سرداب بناه المعتضد بالله سنة ٢٨٨هـ في قصره المعروف بالقصر المأموني او القصر الحسني وقد اشرف بنفسه على رسم مخططه وامر الصناع ان يتم البناء فيه على غاية مايكون من الاحكام والضيق وفي سنة ٢٨٩هـ امر الخليفة المكتفي بالله بهدم هذه السراديب او (المطامير) وبناء مسجد جامع في مكانها وهو اصل الجامع الذي عرف فيما بعد باسم جامع الخلفاء[٥٧] .

وفي شمال العراق في مدينة الموصل توجد قلعة تعرف باسم قلعة باشطابيا وهي تقع على دجلة فوق مرتفع عالي وتحت بناء القلعة يوجد السرداب ويعرف باسم الزندان والزندان كلمة فارسية معناها السجن ثم استخدم هذا الزندان مخزنا يخزن فيه العتاد والذخيرة . [٥٨]

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية . جـ١١
(٢) الخليلي . العتبات المقدسة . قسم النجف ، ص١٢٤
(٣) المصدر السابق ، ص١٢٤
(٤) كلمة نيم سن فارسية وتعني « نصف سن »
(٥) توجد في النجف الاشرف مثل هذه السراديب بكثرة
(٦) يتميز هذين النوعين من السراديب بانخفاضهما القليل عن مستوى صحن الدار وبصغر مساحتهما ويكون الفرض من بنائهما هو خزن المواد الغذائية واحيانا للنوم ظهرا (اخذت هذه المعلومات عن احد بنائي الموصل) .
(٧) انظر سراديب السجون في هذه المقالة .
(٨) مكية ـ بغداد عرض تاريخي مصور ـ ص٢٢٩ .
(٩) دائرة المعارف الاسلامية ـ جـ١١ .
(١٠) جعفر الخليلي ـ موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم النجف ـ جـ٢ ـ ص١٢٤
(١١) المصدر السابق ـ ص١٢٥

(١٢) Woolley: The Antiquaties Journal, xiv, p. 357.

(١٣) طه باقر : المقدمة في تاريخ الحضارات القديمة . جـ٢ ـ ص٥٦٨ ـ بغداد ١٩٧٣

(١٤) Heidel, The Gilganmesh; p. 164

(١٥) مكية ـ بغداد عرض تاريخي مصور ـ ص٢٢٩

(١٦) يعتبر القاشاني من اهم مميزات العمارة الاسلامية وهي مادة محلية الصنع تستعمل بدلا من المرمر والحجر في كسية الجدران من الداخل والعقود وفيها ظهرت المهارة الفنية التي امتاز بها الفنان المسلم (المصدر السابق ـ ص٤٣٢) .

(١٧) مصطفى جواد ـ دليل خارطة بغداد ـ ص١٩٤ ـ ١٩٥

(١٨) آدم متز ـ جـ٢ ـ ص٢٠٤

(١٩) عبدالحسين آل طعمة ـ بغية النبلاء في تاريخ كربلاء ـ ص١٤٦ ـ بغداد

(٢٦) العيون ـ مجهول ـ ص١١٤

(٢١) يقع على ضفة نهر الاسحاقي الجانب الغربي من نهر دجلة بناه المعتمد وتتألف بناية القصر من طابقين يكون الطابق السفلي سراديب (مديرية الاثار العامة ـ سامرراء ـ ص٧١) .

(٢٢) حفريا ت سامراء ـ جـ١ ـ ص٤٥ . و (يونس السامرائي ـ تاريخ سامراء ـ ص١٦٥)

(٢٣) مديرية الاثار العامة ـ سامراء ـ ص٨ ٥

(٢٤) سامراء ـ ص٥٨ و (يونس السامرائي ـ تاريخ سامرراء ـ ص ١٨٤)

(٢٥) مثل احمد سوسة ـ رى سامراء ـ جـ١ ـ ص٦٨ويونس السامرائي ـ ص٨١

(٢٦) المصدر السابق ـ ص٨١

(٢٧) لايستبعد إن يكون هذا السرداب قد استعمله احد الخلفاء لنفسه وحاشيته فكانت هذه الزخرفة ثم جاء غيره فهجره واتخذه محلا للسباع او كما سموه العامة بهاوية السباع .

(٢٨) الشابشتي ـ الديارات ـ ص١٩٠ ـ بغداد ١٩٦٦ (توفي الشابشتي سنة ٣٨٨هـ) .

(٢٩) مديرية الاثار العامة ـ حفريات سامراء ـ ص ٥٨ .

(٣٠) الحوادث الجامعة ـ ص٣٨٠ . ومحمد آل ياسين ـ تاريخ المشهد الكاظمي ـ ص٢٦٦

(٣١) موسوعة العتبات المقدسة ـ جـ١ ـ ص١٧٥ .والحسني ـ العراق قديما وحديثا ـ ص١٢١ .

(٣٢) موسوعة العتبات المقدسة . قسم كربلاء ـ ص١٤٩ .

(٣٣) اخذت هذه المعلومات عن احد معماري القبور .

(٣٤) كان الامام علي الهادي (ع) يسكن المدينة المنورة ولكن الوشاة وشوا به عند المتوكل فأمر باحضاره من المدينة واقره في سامراء وذلك سنة ٢٥٤هـ . وكانت الدار التي ابتاعها الامام تعود لشخص كان يعرف بأسم دليل بن يعقوب النصراني)
الخليلي ـ المدخل الى موسوعة العتبات المقدسة ـ ص١٤٣ و(ابن الخطيب ـ تاريخ بغداد ـ جـ١٢ ـ ص٥٧ ـ القاهرة ١٩٣١) .

(٣٥) السيد محمد صالح البحراني ـ حصائل الفكر في احوال الامام المنتظر (ع) ـ ص١٥ ـ بيروت .

(٣٦) ذبيح الله ـ ماثر الكبراء في تاريخ سامراء ـ ص٢٣٩ ـ النجف ـ ١٣٦٥ هـ .

(٣٧) الحسني ـ العراق قديما وحديثا ـ ص١١٠ ـ ١٩٥٨ .

(٣٨) لقد صيغت حول هذا السرداب طرائف عديدة ليس لها شيء من الصحة تشاع بين الجهال وينكرها العلماء وللاطلاع عليها انظر (الحسني ـ العراق قديما وحديثا ـ ص١٠ او القزويني ـ اثار البلاد واخبار العباد ـ ص٣٨٦) . وغيرها

(٣٩) ذكر العلماء عدة احاديث تؤكد صحة غيبة المهدي (ع) مثل :
١ ـ اكمال الدين واتمام النعمة للشيخ الصدوق
٢ ـ الارشاد للشيخ المفيد
٣ ـ غيبة الشيخ النعماني
٤ ـ اعيان الشيعة ـ محسن الامين جـ١ ـ ص٤٥٧
٥ ـ حصائل الفكر في احوال الامام المنتظر ـ البحرراني ـ ص١٥

(٤٠) الحسني ـ العراق قديما وحديثا ـ ص١١٠
ومحسن الامين ـ اعيان الشيعة ـ جـ١ ـ ص٤٥٧

(٤١) كانت للخليفة العباسي الناصر لدين‌الله ماثر محمودة اخرى نذكر منها احاطته لصحن المشهد الكاظمي باروقة وحجرات ثم تجديد ملبن الضريحين وجعلهما من الساج المطعم وكان يقوم بانجاز تلك الاعمال وزيره مؤيد الدين محمد بن محمد المقدادي القمي وشرف الدين ابو تميم معد بن الحسين الموسوي (الحسني ـ ص١١٩) .

(٤٢) لقد مر بنا انه كان قد قام بتنظيم المشهد الكاظمي وكان يسكن في محلة المقتدية وهي من محال بغداد المدورة وقد سكنها ابنه الطاهر معد الموسوي ثم اصبحت من بعده دارا للضيافة وقد توفي معد سنة ٦١٧هـ (الحوادث الجامعة ص٧٧ و٨٨ و٨٩) .

(٤٣) مديرية الاثار العامة ـ باب الغيبة في سامراء ـ ص٧ بغداد ١٩٣٨ .

(٤٤) باب الغيبة في سامراء ـ مديرية الاثار العامة ـ ص٧ .

(٤٥) ان تسمية هذا السرداب بالتنور او السفينة جاءت على ماعتقد كون موضع مسجد الكوفة كان قبل ان يخطط موضع لسكن النبي نوح عليه السلام ولذا بقي اسم السفينة يطلق على هذا البناء كرمز للسفينة والطوفان الذي حدث في التاريخ كما هو الحال في مقامات الانبياء او مقام جبرئيل (ع) في مسجد الكوفة فانها رموز لكل من صلى منهم او سكن المسجد .

(٤٦) وهي رتبة دينية (مغريان) وهي درجة اقل من بترك واعلى من مطران (اخذت هذه المعلومات عن احد رجال الدين المسيحيين في الموصل) .

(٤٧) ابن جبير ـ الرحلة ـ ص١٥١

(٤٨) السعودي ـ مروج الذهب ـ جـ٢ ـ ص٢١
وجواد علي ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جـ٣ ـ ص١٠٨

(٤٩) ابن الجوزي ـ مناقب بغداد ـ ص١١ ـ بغداد ١٣٤٢
الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ـ جـ١ ـ ص٧٧

(٥٠) احمد سوسة ـ رى سامراء ـ جـ٢ ـ ص٣٦٩
مصطفى جواد ـ بغداد عرض تاريخي ـ ص٣٢

(٥١) احمد سوسة ـ رى سامراء ـ جـ٢ ـ ص٣٦٩

(٥٢) ابن بطوطة ـ الرحلة ـ ص١٤٢

(٥٣) مصطفى جواد ـ دليل خارطة بغداد ـ ص٢٠٤ وذيل تاريخ الذهبي ـ ص١١٧

(٥٤) احمد سوسة ـ رى سامرراء ـ جـ٢ ـ ص٣٦٥

(٥٥) السعودي ـ مروج الذهب ـ جـ٢ ص٢٠٠

(٥٦) مصطفى جواد واحمد سوسة ـ بغداد عرض تاريخ مصور ـ ص٣٠

(٥٧) بغداد عرض تاريخي مصور ـ ص٣٠

(٥٨) الديوجي ـ الموصل ـ ص١٤